

الهوية بين الأنا والآخر ... قراءة في التراث المعرفي

Identity between the ego and the other ... Read on cognitive heritage.

أ.د. ميمونة مناصرية*، جامعة بسكرة، الجزائر.

mimouna_menasria@yahoo.fr

تاريخ التسليم: (2018/10/02)، تاريخ المراجعة: (2019/01/09)، تاريخ القبول: (2019/02/15)

Abstract :

ملخص :

Identity is the nature , object, the meaning and the unity of the self for the human. The identity of the thing means principles which is renewed and changed and exposed itself without giving up its place, as long as the self remain alive, it is like a fingerprint for the person distinguished from others, And renew their effectiveness and status without changing and haze their features. This article explores the issue of identity through two intellectual aspects:

The first aspect: The question of identity through its concept. It distinguishes between the identity in the Arab heritage and the identity in the Latin heritage, "Western heritage. It ends with a clear distinction between the ego and the other in both intellectual doctrines which explains many facts in the Controversial and historical relationship between the parties.

The second aspect: The issue of identity through its functions in various disciplines such as philosophy, sociology, psychology and anthropology, ending with a clear distinction of the position of the ego and the other in each discipline separately.

Finally, this article ends with the realization of evident confusion in the use of the term identity in various national issues related with loyalty and belonging in the context of overwhelming cultural globalization.

Keyword : Identity, the ego, the other, cognitive heritage.

الهوية هي كُنه الشيء وذاتيته، فهووية الشيء تعني عينيته وتعني أيضا وحدة الذات بالنسبة للإنسان، وهوية الشيء تعني ثوابته التي تتجدد وتتغير وتفصح عن ذاتها دون أن تخلو مكانها لنقيضها، طالما بقيت الذات على قيد الحياة، إنها كالبصمة بالنسبة للإنسان يتميز بها عن غيره، وتتجدد فاعليتها ومكانتها دون أن تتغير وتطمس معالمها. ونقرأ هذه الورقة البحثية مسألة الهوية عبر جانبين فكريين:

الجانب الأول: مسألة الهوية من خلال مفهومها، فتميز بين الهوية في التراث العربي والهوية في التراث اللاتيني "التراث الغربي"، لتنتهي إلى تمييز واضح المعالم بين الأنا والآخر في كلا المذهبين الفكريين، الأمر الذي يسمح بالوقوف على العديد من الحقائق التي تفسر العلاقة الجدلية والتاريخية بين الطرفين.

الجانب الثاني: نقرأ الورقة مسألة الهوية من خلال وظائفها في مختلف التخصصات المعرفية كالفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا، لتنتهي إلى تمييز واضح لموقع الأنا والآخر في كل تخصص على حدة.

هذا وتنتهي المقالة في شكلها العام إلى إدراك الخلط الواضح في استعمال مصطلح الهوية في شتى القضايا الوطنية المرتبطة بالولاء والانتماء في ظل العولمة الثقافية الجارفة.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الأنا، الآخر، التراث

المعرفي.

* المؤلف المراسل: أ.د. ميمونة مناصرية، الإيميل: mimouna_menasria@yahoo.fr

مقدمة:

تأتي أهمية الحديث عن الهوية من أهمية وظائفها وأدوارها في ضمان استمرارية واستقرار الأمة، من خلال ما تحققه من تجانس فكري وإيديولوجي بين أفراد المجتمع الواحد، وكذا التعايش والإثراء المتبادل بين مختلف ثقافته الفرعية، بيد أن توظيف مصطلحي "الأنا" و"الآخر" في معرض الحديث عن الهوية يحيلنا إلى مختلف القراءات المتنوعة التي تجسد أبعاداً متكاملة تتظافر لرسم صورة مشتركة لهوية معينة. ولعل هذه الأهمية هي أكثر ما يدفع بالباحثين إلى الخوض في المسألة، فيما يظل تموقع الأنا والآخر في الفكرين المتميزين العربي والغربي إشكالية بحاجة إلى قراءة من مختلف الزوايا والتخصصات الأكاديمية، فكيف يبدو الأنا والآخر المحددين للهوية والمشكلين لها من خلال القراءة الأكاديمية لمختلف التخصصات؟ إذ من الصعب فصلهما عن بعضهما في أي سياق فكري وتصور منهجي.

1 - الأنا والآخر في المنظورين الفكريين العربي والغربي:

الأنا: هو أحد الجوانب اللاشعورية من النفس، يتكون من الهو وينمو مع الفرد متأثراً بالعالم الخارجي الواقعي ويسعى للتحكم في المطالب الغريزية للهو مراعيًا الواقع والقوانين الاجتماعية، فيقرر ما إذا كان سيسمح لهذه المطالب بالإشباع أو بتأجيل إشباعها إلى أن تحين ظروف وأوقات تكون أكثر ملاءمة لذلك، أو قد يقمعها بصورة نهائية. فهو يراعي الواقع ويمثل الإدراك والحكمة والتعلم الاجتماعي.

الآخر أو الآخرون: مصطلح يشير عادة إلى كل ما هو غير النفس المستقلة، بمعنى كل ما هو غير نفسي أنا، يُعد من "الآخرين"، وكل فرد فيهم يطلق عليه مصطلح "الآخر". و"الآخر" هنا تعني أيضاً أنه كل ما هو مختلف عن الأصل. وتفسير معنى "الآخر" هو من صلب تعريف وتكوين الذات أو النفس حسب (فلسفة النفس) حيث تحدد الفروقات النسبية بين النفس والكيان "الآخر". وقد استخدم علم الاجتماع هذا المفهوم لفهم المنهجية التي تستنتج المجتمعات بعض فئاتها على أنها من "الآخرين" الذين يتصفون بصفات دونية لا تمكنهم من الاختلاط معهم. وعلى سبيل المثال، ورد في كتاب إدوارد سعيد "الاستشراق" تفسيرات تبين كيف مارست المجتمعات الغربية خصوصاً إنجلترا وفرنسا هذا المفهوم بهدف السيطرة على "الآخرين" في الشرق.

كما أن مفهوم "الآخر" عنصر أساسي في فهم وتشكيل الهوية، حيث يقوم الناس بتشكيل أدوارهم وقيمهم ومنهج حياتهم قياساً ومقارنة بالآخرين كجزء من منهجية التفاعل البيئي التي لا تحمل بالضرورة معانٍ سلبية.

1.1 - الأنا والآخر في التراث المعرفي العربي: يتتبع آثار مصطلحي "الأنا" و"الآخر" في التراث المعرفي العربي نجدهما في الأصل الوضعي اللغوي (أ.ن.ا) و(أ.خ.ر) مستخدمين منذ القدم من قبل العرب في اللغة والشعر وغيرهما، ولحد الآن وذلك بمعانٍ مختلفة متفاوتة فيما بينهما. وهذان المصطلحان تم

تداولهما بملفوظات أخرى كثنائية التراث والحداثة أو الشرق والغرب... بيد أن شرحهما دائما يأتي في سياقات تاريخية وفكرية مطبوعة تارة بالإخضاع والتبعية وتارة بالانبهار والإعجاب. والواقع أن هذين المصطلحين وكيفما تم استخدامهما في التراث العربي لا يخرجان عن كون (الأنا، كضمير يعبر عن ذات الشخص) و(الآخر، هو المقابل النقيض، هو الغير). أما إذا أتينا إلى المعنى اللغوي فإن كلمة "أنا" اسم مكني وهو للمتكلم وحده، وهي ضمير رفع منفصل مذكرا ومؤنثا .

أما "الآخر" فهو لدى ابن منظور هو اسم على أفعل، والأنثى أخرى، إلا أن فيه معنى الصفة، لأن أفعل من كذا لا يكون إلا في الصفة.

ويرد أيضا بمعنى الغيرية في "كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم"، وهو اسم خاص للمغابر بالشخص، بعبارة أخرى، اسم للمغابر بالعدد، وقد يطلق على المغابر في الماهية أيضا.

1 . 2 - الأنا والآخر في التراث المعرفي الغربي: تشير الاستخدامات التقليدية، والقياسية الواردة في المعاجم الحديثة لمصطلح الأنا بدائية في اللغتين الفرنسية (moi/je) والانجليزية (I self) أن الأصل اللاتيني "Ego"، التي تفيد معنى الذات essence في ترجمتها الفرنسية. الأتوي (Egoist) بمعنى المؤمن بالأتوية، بعبارة أخرى غرور، وإفراط في التحدث عن النفس، ومنها الأتوية (Egoisme) وهي المذهب القائل بأن الفرد ومصلحته الذاتية أساس السلوك كله (سعاد عزيزي. 2016ص04).

بينما نقرأ في معجم لالاند الفلسفي أن الأنا: "Moi وعي فردي، بوصفه منشغلا بمصلحه ومنحازا لذاته"، وأيضا: "الميل إلى إرجاع كل شيء إلى الذات". ويستشهد لالاند بعبارة للفيلسوف واللاهوتي، العالم الفرنسي، بليز باسكال يقول فيها: "لأننا خاصيتان، فمن جهة هو في ذاته غير عادل من حيث إنه يجعل من نفسه مركزا لكل شيء، وهو من جهة أخرى مضايق للآخرين من حيث إنه يريد استبعادهم، ذلك لأن كل "أنا" هو عدو، ويريد أن يكون المسيطر على الكل". ومن خلال هذا التصور لـ "الأنا" كمبدأ للسيطرة يتحدد موقع "الآخر" ودلالته ووظيفته في الفكر الأوروبي، أي بوصفه موضوعا للسيطرة أو عدوا، أو بوصفه قنطرة تتعرف الذات من خلاله على نفسها. يقول سارتر: "أنا في حاجة إلى توسط الآخر لأكون ما أنا عليه".

أما الآخر في التراث الغربي فهو لا يعني أكثر من المغابر المتميز بالتخلف والدونية، بينما يعبر الأنا عن المركزية والتفوق والتميز والتحضر. عبارة أخرى يولي الفكر العربي عناية بالغة للآخر بكونه يتميز بصفات، بينما أنا هو مجرد ضمير يخص المتكلم، أما الفكر الغربي فالأنا هو المحور المتميز بالتعالى والرفعة حد الغرور والمركزية في مقابل الآخر الذي يجب أن تتوسطه الأنا ليشكل لها محورا أساسيا.

2 - مداخل دراسة الهوية: يجد الباحث في موضوع الهوية نفسه عادة في متاهة المداخل النظرية، إزاء مختلف جوانب التحليل والتفسير، فالهوية في المدخل الفلسفي تختلف عن الهوية في المدخل النفسي وكلاهما يختلفان عن المدخل السوسولوجي،... فبعض العلوم تجعل من الهوية مواضيع لدراساتها، وهي بذلك تحيا بهذه الدراسات، والبعض الآخر يجعل منها أداة للتعرف على مختلف الأقوام والإثنيات، ولكن في الأخير كل مدخل منوط بتفسير جانب من جوانب الفرد أو المجتمع، فالمعارف وإن تختلف فيما بينها فهي تكمل بعضها وتعطي لأفق الفكر سعة ورحابة ليستوعب كل الاتجاهات ويمتص كل الاختلافات في إطار ما يسمى بالتعدد والتنوع المعرفي. فقد جاء في "موسوعة الفلسفة" لعبد الرحمن بدوي قوله: أن الهوية تطلق على العلاقة الفكرية التي ترفع كثرة المعاني في الموضوع فتردها إلى الوحدة في الإشارة، فمثلاً "أ في هوية مع ب" معناها أنه: على الرغم من الاختلاف في التعبير بين أ و ب فإن المقصود بهما شيء واحد.

- ففي المنطق والرياضيات تدل الهوية على علاقة بين شيئين (أو كميتين) كل طرف فيها يقوم برأسه، ويستخدم للدلالة على هذه العلاقة العلامة (=) هكذا: س=ص (وتقرأ: س في هوية مع ص).
- وفي علم النفس تثار مشكلة الهوية فيما يتعلق بوحدة ذات الطفل، أو الشاب أو الرجل أو الشيخ رغم اختلاف أطواره وما يقوم به من أدوار.
- وفي علم الاجتماع تثار مشكلة الهوية فيما يتعلق بهوية الشخص في الإطار الاجتماعي، بأن يشعر بالهوية مع أشخاص المجتمع الذي يعيش وينمو فيه، وهو ما يسميه جورج ميد باسم "تعميم الغير" واندماج الذات فيه.
- وفي نظرية المعرفة مبدأ الهوية، إلى جانب مبدأ (عدم) التناقض والثالث المرفوع هي القوانين الضرورية للفكر المنطقي، ولا يكون الفكر سليماً من الناحية المنطقية إلا إذا التزم بها، وصيغته هي: "ما هو - هو".
- وفي الميتافيزيقا نجد أن شيلينغ جعل من الهوية المطلقة جوهر العقل وماهيته، وتبعاً لذلك رأى أن الفلسفة لا يمكنها التخلص من المشاكل العويصة التي تتردى فيها إلا بالرجوع إلى مبدأ الهوية، وذلك لأن جوهر الأشياء الأعماق هو الواحد، والكل الواحد يقوم على المعرفة الذاتية على وجه أدق، وخارجها لا يوجد شيء قابل لأن يعرف. ولهذا ينتهي إلى القول بأن العقل هو والهوية المطلقة شيء واحد، والهوية المطلقة ليست فقط ماهيته، بل هي صورته وقانونه، إن المطلق واحدٌ أَوَّحد، ماهية واحدة هي عينها. والهوية هي الضروري

مطلقاً، ويقابلها : المستحيل مطلقاً، إنها تقوم في الوحدة المطلقة بين الذاتي والموضوعي (عبد الرحمن بدوي. 1984. ص ص 569. 570).

2. 1 - المدخل الفلسفي : لقد كان لموضوع الهوية باع طويل في ميدان الفلسفة، لدرجة أن ظهر مصطلح فلسفة الهوية، الذي يطلق على مذهب شيلينغ القائل بوحدة الطبيعة والفكر، ووحدة المثل الأعلى والواقع، وكل فلسفة لا تفرق بين المادة والروح، ولا بين الذات والموضوع، فهي فلسفة من هذا القبيل لأنها تجمع بينهما في وحدة لا تتفصل، وترجعهما إلى شيء واحد هو المطلق (جميل صليبا. 1994. ص 65). يعد أرسطو الفيلسوف اليوناني الشهير وواضع أسس علم المنطق أول من تحدث عن الهوية ، وذلك من خلال موقفه المتسق من العالم، فهو يرد كل شيء إلى أصوله وأركانه الأساسية، إذ وضع ثلاث قواعد للهوية أسماها قوانين الهوية، ورأى أرسطو أنه يمكن رد قوانين الفكر الأساسية إلى قانون واحد هو قانون الهوية، فقانون عدم التناقض هو صورة سلبية لقانون الهوية، قانون الثالث المرفوع صورة شرطية لقانون عدم التناقض، وقانون الذاتية صورة إيجابية للقوانين الثلاثة. وإذا كان "أرسطو" قد أكد مبدأ ثبات الهوية بالقول بعدم التناقض ، فقد جاء "هيجل" بفلسفته المادية والجدلية وحل التناقض، وأعلن تغيير الهوية وتحولها من حال إلى حال بفعل التغيير والتناقض اللذين يؤكدان ضرورة المجتمعات، وبطلان ثبوتها على حال واحد. معنى هذا أن "هيجل" فرض وجود الوسط الذي يرفع التناقض، وبالتالي يكرس مبدأ التعددية في الهوية الثقافية، ويكشف عن أهمية العلاقة التي تبرز التشابك والتداخل والتعارض بين الأفكار والأحداث. وقد مهد المنطق الهيجلي إلى القول باحتمالية القوانين العلمية، وظهور نظرية النسبية، وسقوط اليقين عن أفكارنا البشرية، وعدم التعصب لأي فكرة، لأن كل فكرة تحتل الصدق أو الكذب. لذلك لا قطعية في يقيننا العلمي، وهذا لا يعني الاستسلام للتوكيدات الخيرية والخرافية الساذجة التي تنعكس علينا بكل أشكال التخلف، بل يجب ترسيخ المنهج العلمي بيننا بالثقافة والتعليم، وزيادة فهم لمزيد من أحكامه ، يجعل التغيير والنسبية فيه لصالح زيادة معرفتنا لا ضدها . وقد أدى هذا إلى الدراسة العلمية للهوية الثقافية لأي مجتمع ، إذن لا يمكن دراسة الهوية الثقافية بمعزل عن المنهج العلمي المعاصر ، فالجزء رغم اختلافه وتنوعه لا يمكن فهمه إلا من خلال الكل أو السياق الذي يحويه، لهذا يدرس رواد الفكر الفلسفي المعاصر قضيتا الهوية والثقافة في علاقتهما بمنهج البحث العلمي بناء على أن منهج البحث العلمي أساس كل معرفة إنسانية (فاطمة الزهراء سالم. 2008. ص 65).

وفي الفكر الفلسفي المعاصر، حظيت العلاقة الترابطية بين المنهج العلمي والهوية بمزيد من الاهتمام، فإذا كان المنهج هو مجموع العمليات العقلية زائد الإجراءات الميدانية التي يستخدم فيها الإنسان العقل للفهم في أي حقل من الحقول المعرفية والفلسفية والدينية، فإن الهوية هي البناء الفكري الذي يستند إليه المنهج، والأساس الذي من خلاله يستقي المنهج معرفته بالبنية الداخلية للمجتمع، والمحيط الإيديولوجي

الكائن فيه، على اعتبار أن الهوية تشتق من "هو" أي الذات الإنسانية التي تنمو وتتحوّل بفعل حركة الزمن، وتتشكل الهوية عبر الزمن من جملة أنماط الثقافة التي يتشبع بها المجتمع الإنساني.

لذلك فإن مسألة بناء التصورات والمفاهيم حول قضية ما، لا تكون خالصة نقية عن ذاتية الباحث، ففي حقيقة الأمر إن هوية الباحث والسياق المحيط بهما يساهمان بشكل كبير في بناء تلك التصورات، خاصة في القضايا الإنسانية والاجتماعية، وهذا ما سلم به العلم ومنهجه في الحقبة المعاصرة، وبناء على وجهة النظر المنهجية هذه تغيرت معالم الهوية وبدأ التفكير في الذات الإنسانية بشكل منهجي ومستقبلي، وتحولت فلسفة الخرافة التي سيطرت على الفكر الإنساني، إلى فلسفة عقلانية تزن الأمور بمنطق علم، يعتمد على السياق الاجتماعي والعالم من حولنا.

والهوية هي المنطق الذي يسير عليه المنهج بكل خطواته، إذ أنها تستند إلى معايير ومبادئ ووقائع وخبرات لا يمكن للمنهج إعطائها وقتاً للمعالجة والتطبيق، ومن هذه الحقيقة يسهل استدلال الفكرة القائلة: بأن مقتضيات الهوية مفروضة على مناهج البحث من الخارج، ولما كانت المناهج تتحوّل وتتفاوت جودة وحسن تطبيق ورداءة وصعوبة تنفيذ، كانت الهوية معيار نقدها وتقويمها (فاطمة الزهراء سالم، 2008، ص 68)، ومن هنا يمكن فهم العلاقة بين الهوية والمنهج في ضوء ما توصل إليه الفلاسفة عبر الزمن:

– خضعت الهوية للدراسة العلمية من خلال المنهج العلمي المعاصر الذي يقوم على الجمع بين مميزات الاستقراء والاستنباط معا، وهو ما يسمى المنهج الفرضي المعاصر، الذي يصوغ فروضا علمية، ويخضعها للملاحظة والتجربة ويربطها بالواقع المعاش.

– يمكن قياس التحولات التي تطرأ على الهوية الثقافية من خلال المنهج الكيفي القائم على الفهم، والذي يسهم في بناء العلاقات بناء على السياق التاريخي للمجتمع موضوع البحث، من أجل الوصول إلى المبادئ والقوانين العامة عن طريق البحث في أحداث التاريخ الماضية وتحليل الحقائق المتعلقة بالعوامل والقوى الاجتماعية التي شكلت الحاضر وساهمن في تحول الهوية.

– ولا يمكن بأي حال إغفال التكنولوجيا الرقمية التي غيرت مجرى الحياة، وجعلت المنهج الكيفي القائم على الفهم ليس بهذه البساطة المعهودة له من قبل، حيث بات إنسان اليوم يقف موقفا نقديا من عقل ماضيه، واسترشد العقل الإنساني بالمستقبل صانعا منهجيته ليتجاهل الماضي بكل ما يحمله من تراث وقيم وأخلاقيات دينية، ويغفل الحاضر، ويتطلع فقط إلى المستقبل الغامض، وبهذا أتى العالم الجديد بفجوة هي فجوة العقل، بفعل تكنولوجيا المعلومات، وعلى الأخص فجوة (العقل العربي) الذي يتطلع إلى المستقبل وينكر الماضي، إلا أن الماضي مستمجد بداخله بكل نظرياته وإيديولوجياته الفكرية (فاطمة الزهراء سالم، 2008، ص 69-70).

2. 2- المدخل السوسيولوجي :

يحظى مصطلح الهوية بباع واسع في علم الاجتماع، ويمكن مقارنته من عدة زوايا، فالهوية بشكل عام تتعلق بفهم الناس وتصورهم عن أنفسهم ولما يعتقدون أنه مهم في حياتهم، ويتشكل هذا الفهم انطلاقاً من خصائص محددة تتخذ مرتبة الأولوية على غيرها من مصادر المعنى والدلالة، ومن مصادر الهوية هذه: الجنوسة والجنسية والمنطلقات الإثنية والطبقة الاجتماعية...، وتتحدد الذاتية الاجتماعية، من خلال فاعليتها داخل البناء الاجتماعي الاقتصادي الذي تتواجد فيه، بحيث تؤثر الشخصية الاجتماعية في البناء الاجتماعي الاقتصادي، إذ يمكن أن تكون قوة لائحة تساعد على مزيد من استقرار البنية الاجتماعية، أو تتحول في ظروف خاصة لتصير قوة تفجير تعمل على البنية الاجتماعية (فاطمة الزهراء سالم، 2008، ص72)، إذ أن التقارب بين مفهوم الهوية الاجتماعية والأدوار الاجتماعية قد حدا بالعديد من الدراسات حول الأدوار إلى تسهيل دراسة الهوية، حيث أن الهوية الاجتماعية تتمثل لدى (Sabrin) مثلاً في تصور الذات المنبثق من المكانة التي يشغلها الفرد داخل البنية الاجتماعية. فالدور كمظهر دينامي للمكانة يعطي بعداً تقييمياً للفرد وللحوية الاجتماعية لأنه ينطلق من الوضعية التي يحتلها الفرد، أي ينطلق من نمط سلوكي يتشكل في ضوء التوقعات والمتطلبات المرتبطة بالدور، وعلى هذا الأساس يكون للهوية الاجتماعية ثلاثة أبعاد :

- المكانة أو الوضعية التي يحتلها الفرد داخل البنية الاجتماعية.
- تقييم الأنشطة المرتبطة بهذه المكانة.
- تبني الفرد لهذا الفرد (محمد مسلم، 2009، ص07).

ويكتساح العومة ساحة الفكر العالمي تزايدت صيحات المجتمعات المحلية، والجماعات الإثنية بالموازاة بفكرة الهوية، وطفّت على السطح مختلف القوميات مطالبة باسم حقوق الإنسان بحقها في الوجود، وبإحياء ثقافتها حتى لو كانت فرعية ومهمشة في مجتمعات كبيرة، ولم يقتصر الأمر على الشعوب التي كانت تسعى إلى تشكيل دول قومية جديدة، بل على المستوى العالمي العام، وأصبحت العلاقة الجدلية بين العولمة والهوية موضوعاً أساسياً في شتى المناسبات، فيما بات التفكير في هوية حضارية تتماشى والقيم العالمية وتحفظ في ذات الآن بالقيم المحلية مطلب جل المفكرين والباحثين، في ظل انسياق عامة الناس صوب السلوك الغربي الذي بدا بريقه ساحراً مغرباً... حيث سادت مختلف المجتمعات قيم جديدة تمثلت أساساً في الفردانية والمنفعة والاستهلاك على نطاق واسع، الأمر الذي جعل قضايا الهوية محورياً أساسياً في العديد من الدراسات السوسيولوجية. فقد كان زعماء فرنسا ومنقفوها متخوفين من مدى قدرة الهوية الفرنسية على الصمود في وجه الاختراق الثقافي والإعلامي الأجنبي، على الرغم من الخلفية الثقافية الفرنسية العريقة التي تجر وراءها فكر الأنوار وأبجديات الحداثة الغربية من

إرهاصات الفكر الديكارتية إلى اشتغالات فلاسفة الاختلاف، كما أن كانتونات سويسرا وقوميتي بلجيكا وطائفتي أيرلندا ليست كلها أكثر من تعبير عن التشبث بالهوية في زمن العولمة، أما ألمانيا فإن أزيد من أربعين سنة من الفرقة الإسمنتية لم تلغ سعي الطرفين نحو هوية الأمة الألمانية في مشهد التوحيد، ولعله من قبيل المفارقة الإشارة إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية، متزعمة أيديولوجيا العولمة في العالم، تعد من أكثر البلدان استشعاراً لهاجس الهوية (محمد فاضل رضوان. 2008/04/02. <http://www.educdz.com/montada>). بينما تشكل الثقافة المادة الأساسية للهالة المحيطة بالهوية، بكل مركباتها وسماتها، حيث أن استبدال السمات الثقافية يتبعه حتماً تغير في نمط الهوية.

2. 1 - التحليل السوسيولوجي لمفهوم الهوية والهوية الثقافية: يختلف مفهوم الهوية في الفكر العربي عنه في الفكر الغربي، ليس في المعنى الإجرائي بل في المعنى الوظيفي للمصطلح، أو بالأحرى في كيفية توظيف المصطلح وتكييفه حسب الحاجة ويظهر ذلك من خلال الآتي:

أ - **الهوية في الفكر العربي :** يشير البعض إلى أن مفهوم (الهوية) مفهوم غربي لم يعرفه الفكر العربي إلا حديثاً، فالبحث المتأني في المعاجم يشير إلى هذه الحقيقة، فالمصباح المنير، والقاموس المحيط، ولسان العرب تخلو من هذا المصطلح الحديث، إذ لا يعدو الشرح عن أن تكون الهوية مستقاة من الفعل هوى أي سقط من عل، وقد عرفه الجرجاني بوضوح أن الهوية هي "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتغال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"، ومن خلال البحث في هذه المعاجم، لا نجد تعريفاً واضحاً عن الهوية، إلا في معاجم وقواميس العصر الحديث، وهذا ما يثبت وجهة النظر السابقة (فاطمة الزهراء سالم. مرجع سبق ذكره. ص73).

ويمكن تفسير ذلك، أن الثقافة العربية الإسلامية في عصورها الزاهرة، لم تكن بحاجة إلى تعريف الهوية أو القومية أو الوطنية، بل لم تكن بحاجة إلى طرح سؤال الهوية ذاته، فلماذا تطرح سؤالاً لتأكيد الذات وهي صاحبة الفتوحات والنهضة والمخزون الحضاري من التراث الذي شيدته على مر العصور؟، بيد أنها شعرت بالحاجة لتأكيد الذات لشعورها بالإحراج إزاء الوضعيات المؤسفة التي آلت إليها، فبين الاستعمار والانتداب والوصاية والتحكم بالمصير... وجدت الأمة نفسها في حاجة لتأكيد هوية نقية، بعدما أصبحت وأصبح تاريخها وماضيها المجيد محل جدل.

ومع ذلك نجد تعريفاً وحيداً عرفته الثقافة العربية الإسلامية، وهو التعريف المنطقي لها، إذ فهمها الفارابي على أنها "من الموجودات وليس من جملة المقولات، فهي من العوارض اللازمة، وليست من اللواحق التي تكون بعد الماهية"، كما حدد هوية الشيء بأنها "عينيته ووحدته وتشخصه وخصوصيته ووجوده المنفرد له كل واحد" وقلنا إنه "هو" إشارة إلى هويته وخصوصيته ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك" (مجموعة من الباحثين. 1984. ص401). كما أن ابن رشد قد عرف أيضاً الهوية في هذا

الإطار المنطقي، والذي على ما يبدو نقل عن اليونانية، بكونها "تقال بالترادف على المعنى الذي يطلق عليه اسم الموجود، وهي مشتقة من "الهو"، كما تشتق الإنسانية من الإنسان، وإنما فعل ذلك بعض المترجمين، لأنهم رأوا أنها أقل تغليظاً من اسم الوجود إذا كان شكله شكل اسم مشتق" (مجموعة من الباحثين 1984.ص401).

وقد بدا الاختلاف إزاء الهوية واضحاً في التراث العربي الإسلامي من خلال المؤتمر الذي عقد في القاهرة عام 1984 بعنوان "الهوية والتراث" حيث خرج المؤتمرين بزخم متنوع من التعاريف للهوية، حيث اعتبرها فريق بأنها: "الإدراك الحضاري المتميز للمجتمع الذي يتبلور في الشعور بالانتماء، وفي التعبير عن هذا الشعور سياسياً"، بينما رأى فريق آخر "أن الهوية تجسيد للسمات النفسية والاجتماعية والحضارية" ورأى فريق ثالث بأن الهوية "هي السمات التي ترتبط بالفرد نتيجة لانتمائه للمجتمع" في حين رأى فريق رابع بأن الهوية "السمات المميزة لدولة وطنية، والتي تعبر عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي لتاريخ المجتمع" واختلف المؤتمرين حول استخدام مصطلح الهوية بمعنى الشخصية أو الطابع الوطني أو الطابع الاجتماعي أو الطابع الحضاري (مجموعة من الباحثين 1984.ص402).

ومنذ ما ينيف عن عشرين سنة، وفي ظل استحالة التأثير الجارف للعولمة باتت الكتابات العربية تستخدم مصطلح الهوية بشكل كبير، إما لصناعة هوية جديدة تتفق والعصر، أو هوية تمجد الماضي أو هوية معبرة عن انتماء عرقي يسعى للبروز في خضم الإقصاء والتهميش.

ب - الهوية في الفكر الغربي: يعود مصطلح الهوية إلى عهد أفلاطون وأرسطو وتوما الأكويني مروراً بكانط ودافيد هيوم... والقائمة طويلة مما يدل على أهمية المصطلح في الفكر الغربي، حيث يبدو إشكال الهوية غير منفصل عن إشكال الفردية، فحتى يتماهى موجود أو عديد من الموجودات بآخرين ينبغي التمييز بينهم في كل شيء من الأشياء التي لا يكونونها، وعلى العكس عندما ندرك موجوداً فردياً ينبغي تصور هويته التاريخية، ولذا يستحسن التعرف على الهوية في الفكر الغربي من خلال جملة من العناوين:

• الإنسان والمجتمع :

يتناول الفكر الغربي الهوية الثقافية من منظور كلي وجمعي، حيث أن ذات الفرد تتحقق من خلال الجماعة، والحديث عن الهوية والهوية الثقافية يجب أن يأخذ الصيغة الاجتماعية لا الفلسفية أو الذاتية، وذلك نظراً للطابع العلمي والمنهجي للفكر الغربي الذي يدعم الاتفاق لا الاختلاف حول الحقيقة العلمية من خلال مبادئ وخطوات منهج علمي واحد، وهذا لا يتنافى مع القول بالنسبية، فالنسبية من المنظور الغربي هي التنوع والاختلاف في إطار كلي متفق عليه مقبل.

لذا فالفلسفة الغربية تهدف إلى تكوين الإنسان الكلي، وتكوين الهوية الاجتماعية، وتدعم الفكر المؤسسي، وتؤلف نظرية اجتماعية تسير على هداها، ومن ثم تتضح هوية العالم الغربي دون التباس أو غموض، فعلى سبيل المثال إذا تحدثنا عن قيم المجتمع الأوروبي نجد أن أول ما يتبادر إلى أذهاننا قيم العمل - الحرية - الديمقراطية الصدق والأمانة، وتحمل المسؤولية والتسامح وعمل الفريق، فتلك القيم هي ما تشكل نظرية المجتمع الغربي التي يستند إليها في تشكيل هويته كي تكون هوية معروفة للعالم أجمع. فالمصلحة العامة للمجتمع الأوروبي عادة تحكمها ممارسات أخلاقية وسلوكية عامة وشائعة بين الناس جميعا، فالقانون مثلا لا يعاقب الشخص الذي ارتكب جرم الزنا - رغم أن هذا الجرم هو من أكبر الكبائر في مجتمعات غير أوروبية - بنفس الحدة مع المتهم من الضرائب، على اعتبار أن المصلحة العامة هي من أهم الأمور التي يحافظ عليها المجتمع الأوروبي، بصرف النظر عن ديانته أو عقيدته التي يؤمن بها، إلى الحد الذي صار معه القانون الأخلاقي قانونا وضعيا يحاسب عليه المرء ويدان عند خرقه. ومن ثم تندمج هوية الشخص مع الهوية الاجتماعية، وتتحول هوية الشخص ونظرته للحياة والكون بناء على نظرة المجتمع وإيديولوجيته التي يجسدها المجتمع في مختلف المواقف الاجتماعية، ولهذا فإن الحديث عن هوية ذاتية أو هوية خاصة بالشخص وانفعالاته ومبادئه وقيمه يعد وهما وزيفا، فلا حدود لتمييز الهوية الشخصية عن الهوية الاجتماعية. ولذلك فإن نظرية العقد الاجتماعي ليست حبرا على ورق، أو مجرد فكرة تتداولها الأوساط الفلسفية والسوسيولوجية، بل إنها تجد لها تجسيدا قويا في الحياة الاجتماعية اليومية للإنسان الأوروبي.

• الهوية والتوحد :

ينتج عن تحديد الهوية وأركانها من لغة وثقافة وتعليم وقيم ومبادئ، توحد هذه الأركان، بحيث يتوحد أفراد المجتمع مع قيم المجتمع أو الجماعة التي ينتمي إليها الفرد من أجل تحقيق مصالح مشتركة، ومن هنا يمكن تعريف التوحد بأنه تعزيز انتماء الأفراد داخل الجماعة من أجل تحقيق غايات مشتركة، وما يترتب على ذلك من سلوكيات تتسم بالتجانس والتوافق الاجتماعي، وتحجيم أي صور من عدم التجانس وصعوبة التكيف مع الجماعة، وتقييم عملية التوحد يأتي من الملاحظة والمتابعة المستمرة لسلوكيات الأفراد داخل الجماعة.

• الضمير الجمعي :

الضمير الجمعي، أو ما يسمى الوجدان الجمعي هو مجموعة المعتقدات والعواطف المشتركة التي يحملها عدد من الأفراد ينتمون إلى جماعة أو منظمة معينة، حيث يقول إميل دوركايم في كتابه تقسيم العمل أن لكل مجتمع عقلا جمعيًا له القابلية على إعطاء صبغة معينة لتقاليد وعادات ومقاييس

الأفراد، وأن الفرد الواحد مهما بلغ من قوة أو ذكاء لا يستطيع التأثير على هذا العقل (عبد الهادي الجوهري. 1998. ص134).

والحديث عن الهوية الثقافية في المدخل الاجتماعي، يستحضر في جل معالجاته الضمير الجمعي، إذ أن عملية التوحد مع الجماعة والتماثل لا تتم إلا من خلال ضمير جمعي، والواقع أن فكرة الضمير الجمعي قد برزت مع **جان جاك روسو** عند حديثه عن العقد الاجتماعي، وبلغت فكرة الضمير الجمعي تمامها مع **إميل دوركايم**، حيث تحدث عن المصطلح صراحة، من أجل تكوين جماعة مرجعية تصلح أحوال المجتمع وتديره من خلال ما أسماه بالإرادة الشعبية، ورأى أن انتفاء تلك الإرادة يفسح الطريق لحكم النخبة وما يحدثونه من هيمنة إيديولوجية وسياسية. ولعل أهم ما أفرزته التكنولوجيا الحديثة هو التعامل مع الإنسان والعلاقات الإنسانية كأرقام أو مجرد حروف، ولذا انبرى علماء الاجتماع ومن بينهم **هابرماس** في سبيل تقويض العقل السجالي الذي شأب الإنسان، وجعل مهمته العقلية في استيعاب التكنولوجيا، وكيفية التعامل معها، فكانت الدعوة إلى إقامة العقلانية التواصلية التي تنشئ عقلا موضوعيا جمعيًا يستند إلى إرادة جمعية كرأب الصدع الذي نجم عن التقنية المادية، وما أحدثته من خرق للتنشئة الخلقية والاجتماعية، حيث ينشأ العقل الجمعي عن الضمير الجمعي، ذلك أن وحدة العقيدة واللغة تؤلف فكرا واحدا وقرارا واحدا يعبر عن إرادة جمعية تستهدف الصالح العام، والخير الكلي للجماعة صانعة القرار، وغني عن البيان أن العقل الجمعي ليس عقلا نخبويًا يسلط الضوء على الصفوة دون المجموع، وإنما هو عقل موضوعي يتصف بالنزاهة والشورى، ويستند إلى مبدأ عدم التناقض في الحكم، ولا يفرق بين قوي وضعيف إلا بالحق. ومن هنا يمكن القول بأن العقل الجمعي هو صورة الضمير الجمعي في الواقع، وهو إرادة الضمير الجمعي منطوقة ومعبر عنها في صور ذهنية أو خبرات إنسانية أو أفعال اجتماعية (فاطمة الزهراء سالم. مرجع سبق ذكره. ص35).

2. 2 - التعددية الثقافية والفعل الاجتماعي: يؤمن الفكر الغربي بأكثر من ثقافة، فيرى أن

التعددية الثقافية شرط أساسي لقيام الحضارة الإنسانية، والتقدم والتنمية رهن بتعدد الثقافات والهويات، إذ لا توجد ثقافة واحدة بل ثمة ثقافات متعددة، بحيث لا يختص الفعل الاجتماعي بمجتمع بعينه، بل هو نتاج وحسيلة جملة من الثقافات التي تفاعلت مع بعضها البعض، فالطابع العملي مثلا للمجتمع الأمريكي أو الانجليزي لم ينشأ من الثقافة الأم للمجتمع الأمريكي أو الانجليزي، بل هو محصلة الاحتكاك المباشر بالثقافات الأوروبية والشرقية الأخرى التي شكلت النسيج الثقافي للمجتمع الأمريكي أو المجتمع الانجليزي، وبالتالي لا توجد ثقافة مدنية بريطانية أو ألمانية أو فرنسية أو إيطالية، والاختلافات بين البلدان تكون في الدرجة وليس في النوع، أي أنها اختلافات في بضع درجات مئوية.

2. 3 - المدخل النفسي : قلما وجد مفهوم من المفاهيم النفسية لاقى من الانتشار في لغة الحياة اليومية أكثر من مفهوم "الهوية" أو "أزمة الهوية" إلى جانب "مركب النقص" لأدلر (بيتر كونسن. 2010. ص 37). إذا كان المدخل الاجتماعي يهتم بدراسة الذات الإنسانية في علاقتها بالأنساق الاجتماعية داخل المجتمع، وشكل ونمط العلاقات الاجتماعية الكائنة بين البشر، فإن المدخل النفسي يهتم بتشكيل الذات، وبث الثوابت والمبادئ الأخلاقية والدينية من خلال علاقة الأنا بذاتها، وقدر ونوعية المصالحة مع الذات، ودرجة الصحة النفسية التي يتمتع بها المرء، من أجل تشكيل هويته الذاتية التي ترقبه للعيش في جماعة والتفاعل والتعايش في مجتمع إنساني عاقل وفعال، لذلك يتم تحديد مفهوم الهوية من المدخل النفسي على ضوء الأبعاد الآتية:

2. 3. 1 - تشكيل الأنا: يستخدم الأنا عادة لتحديد متغير بسيط، ثم إن الخطاب حول التخلي عن الأنا يتداول اليوم، وهو تَخَلّ عن الموضوع في نفس الوقت، فالإنسان في الفترة الراهنة (يمر بعملية اختفاء)، والخطورة في أن هذا الخطاب يأخذ الصفة العلمية، على الرغم من أنه خطاب أيديولوجي يواكب متطلبات الحداثة وما بعد الحداثة في الافتتان بحيوانية الإنسان مثل مشروع القردة العليا، وقانون نورمبرج ونظرية بريموليفي، وهذا الخطاب الحداثي نتاج ثلاث ثورات تشكل منظومة فكرية قضت على إنسانية الإنسان، وهذه الثورة الاقتصادية التي ترتبط على نطاق واسع بانتهاء الشيوعية وفقدان الديمقراطية، والثورة الثانية وهي الثورة الرقمية التي نجد صعوبة في استثنائها أو جعلها إنسانية، والثورة الأخيرة وهي الثورة الجينية التي تشكك مرة أخرى في مفاهيم معينة أخرى مثل قدرتنا على التدخل في تكوين الجنس البشري ذاته، وهو ما يسميه (بيير ليجندر) مبدأ تسلسل الأنساب، وعلاقتنا بتعريف الكائن الحي ذاته، وغياب الفاعل الإنساني، ناتج عن أنه ينفعل مع هذه الثورات بشكل جزئي، وليس بشكل منظومي، فكل واحد منا يتعامل مع جانب واحد فقط، من هذه الثورة الكونية فعلى سبيل المثال من الصعوبة إصدار أحكام أخلاقية دون دراسة شاملة وكافية لمجمل الظروف والأحداث التي دعت إلى فعل أي عمل لا أخلاقي أو مشين، وبالتالي عند الدراسة الكافية يتطلب الأمر معاينة الآخرين بجوار المذنب (المتهم الأساسي).

وإذا سلمنا بما تدعو إليه الثورات الثلاث كخطاب أيديولوجي فهو يعني أن العالم يتجه نحو التجرد من الإنسانية، إنها مسألة صعبة وغاية في التعقيد تتطلب فهما وعمقا وتحديدا للأولويات، في أن تتشكل الذات الإنسانية ويقاس مقدار عطائها بمثيلاتها من الذوات الإنسانية، وليس بالآلة أو التكنولوجيا الجديدة، لأن الغلبة ستكون للأخيرة بالطبع، ولكن دور اللجان الأخلاقية هو القضاء على حصار الإنسان المعاصر، وإطلاق طاقاته الإبداعية واحترام الخصوصية الذاتية، وإعلان تسامي الجسد البشري عن أي

تجارب أو إخفاقات جينية، ومن هنا تتشكل الأنا من جديد، من خلال حضور دائم للذات أمام نفسها وتصبح الأنا قويا يلخص الشرط الإنساني، ولا يجهل أن العالم مملوء بذوات أخرى يتعين التآلف معها.

2 . 3 . 2 - تكوين الضمير الداخلي: متى تتشكل الأنا، ينشأ مع الأنا ما يسمى بالأنا الأعلى أو الضمير، وهو بمثابة السلطة الداخلية للإنسان، أو الصوت الداخلي، وماهية الضمير أو الشعور الخلفى تكمن في انعكاس الشعور على نفسه، حيث يقوم بفحص حالاته الشعورية ووزن أفعاله من أجل استحسانها أو استهجانها، وقبولها أو رفضها وامتداحها أو ذمها. ويفترض الضمير مسبقا قبول العقل الباطن لسلطة الدعوى الأخلاقية التي يكون المرء موضوعا للتصرف طبقا لها، الأمر الذي يجعل الاعتبارات الأخلاقية بالضرورة سوف تقوم بالدافعية بناء على رغبات المرء.

وطبيعة الضمير تختلف حسب طبيعة التناول الفكري له، فقد تناول الكثير من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والتربية الضمير بمفاهيم مختلفة ووظائف مختلفة أيضا، أما الضمير بالمعنى السيكلوجي، فهو يعني الوعي بالذات والإحساس بالوخز عندما ترتكب الأنا الرذائل، ويتحكم فيها مبدأ اللذة حسب نظرية "سيغموند فرويد"، وبالتالي ينشأ القلق والصراع نتيجة لهذا الإحساس بوخز وتأنيب الضمير، ومن ثم العدول والتصحيح الذاتي لما ارتكبه المرء من موبقات، وما يفرضه الأنا الأعلى من نظام في داخل الشخصية، كبنية مستقلة عن السياق الاجتماعي المحيط.

أما "جون ديوي" فيرى أن للخلق الحسن الذي يكون منشأ للضمير ثلاثة ملامح بارزة: وهي القوة والإدراك السليم وسرعة التأثر واللباقة، أي أن الصفات النزوعية والفكرية والعاطفية للنفس تساهم جميعا في إتمام الخلق، إلا أنه يؤكد على أن الفرد كمجرد فرد ليس هو صانع المطلب النهائي للعمل الأخلاقي، أو هو الذي يقرر الغرض النهائي، أو هو الذي زودنا بالمعايير النهائية للاستحقاق، إن الذي يقرر هذه الأشياء إنما هو نظام حياة أوسع يندرج هو في إطارها، إلا أنه عندما نصل إلى التساؤل عن كيفية مواجهة الفرد للمطالب الأخلاقية، وكيف يلزمه أن يقوم هو نفسه بتحقيق القيم، فإن المسألة هنا تصبح من اختصاص الفرد على اعتبار أنه فاعل، ومن ثم وجب علينا في هذه الحالة أن نجيب بلغة علم النفس. وقد تأثر السلوكيون بالمذهب البرجماتي لـ "جون ديوي" ووجهة نظره في الفرد والمجتمع، وصوروا الوعي الداخلي للإنسان بما يحدث عنه من سلوك، ودور البيئة عامل أساس في تشكيل الوعي الداخلي للإنسان، فالملاحظة الموضوعية لسلوك الإنسان لا الاستبطان الداخلي كما يرى فرويد هي أساس تشكيل الوعي عند الإنسان.

فيما نشأ الوعي الداخلي عند الجشطالتيين الذين يمثلون نظرية الصيغة أو الجشطالت من خلال نمو الخبرة المباشرة، ومن خلال نمو الخبرة المباشرة، ومن خلال التفاعل الأساسي بين الذات والموضوع،

وهي مقولة جدلية القصد منها هو أن الكل ليس جمعا للأجزاء التي يحتويها هذا الكل، بل هو يمتلك خصائص ذاتية تؤثر في هذه الأجزاء.

2. 3. 3 - الوعي واغتراب الذات: يرتبط الوعي بالتحضر والإبداع، أما الاغتراب فيرتبط باللاوعي والوهم، وبالتالي تدمير الحضارة، وهذا ما أسسه فرويد باسم "التحليل النفسي"، أو ما يمكن أن يقال عنه "علم اللاوعي" الذي يسيطر على الوعي من خلال الضغط والردع وحرمان الغرائز، وهذا من جهة نظر النسق الفرويدي ظاهرة حضارية. ويعرف الوعي بأنه جملة المشاعر ولحظات الإدراك واليقظة، ويكون الشخص واعيا إذا كان يشعر أو يدرك، أما عن الوعي بالذات فلا يوجد مركز للوعي بالذات، وتغترب الذات عن ذاتها في حالة اللاوعي، إذ يشعر الفرد بانفصاله عن ذاته، وقد تناول "إريك فروم" موضوع الاغتراب من زاوية (تكوين الشخصية)، وهو يرى أن الاغتراب نمط من التجربة، يرى الفرد نفسه فيها كما لو كانت غريبة عنه، ويفتقد المغزى الذاتي والجوهرى للعمل الذي يؤديه، وهذا يكون أكثر في المجتمع الصناعي المتحضر عن المجتمع التقليدي. وهكذا فإن اغتراب الذات يعني ذلك الذي لا يمتلك ذاته، وقد عبر الفكر اليوناني القديم عن الاغتراب بحالة الجذب، حيث يسلم الإنسان جسمه للشعائر وما بها من ألغاز، وهو الشخص الذي لا قبيلة له، ولا قانون ولا قلب.

وقد صور عالم النفس "كولبرج" فكرة الوعي والاعتراب بقدرة الوعي على التكيف والمواءمة، إذ يرى أن مرحلة النضج والاستقلال عند الراشدين هي تلك المرحلة التي يكون التفكير فيها واعيا، ومن ثم يحدث التمثل والمواءمة، من خلال ما ينشئه الفرد من عقد اجتماعي يقوم على المنفعة المتبادلة بين الأفراد والالتزام بالقانون الوضعي، أما في حالة صعوبة التكيف، فقد تنشأ حالة من اغتراب الذات، ويكون الشخص ساخطا على الجماعة، ولا ينفذ أوامرها، ولا يدرك ما هو الصواب، ومن ثم تتطوي الفرد وينعزل عن أدوار الجماعة دون أن يكون فاعلا فيه.

2. 3. 4 - الهوية التحرر والإبداع : عندما ينشأ الوعي في الذات، وتعي الذات بذاتها تستقل الإرادة الذاتية وتحرر، وترفع قدراتها الذاتية إلى مستوى الاقتدار الذاتي، وهو اقتدار أرقى وأعلى في اتجاه حكمة الاختيار، ونزاهة الفعل، وإبداع الأداء، والتحرر روح الإبداع، فالإبداع تجاوز أي تحرر خالص من خلال كفاءة تدبير الطاقة النفسية وتوجيهها وتنظيمها، وتدريب الذاتية على الترحاب والتدفق والتلقائية والتجدد والتنوع، وتنمية نزعة المجاوزة، والتوازن والثقة في القدرة الذاتية على الإبداع. والهوية تتحدد وتتشكل متى كانت الإرادة متحررة، والعالم التكنولوجي اليوم يطالب بالجودة، حيث أثرت ثورة الجودة تأثيرا كبيرا على المستوى الاجتماعي، فقد منحت الأفراد فرصة المشاركة بشكل أفضل في فريق العمل، والعمل من أجل خلق معرفة جديدة، وتتطلب ثقافة الجودة مقاييس جديدة للإبداع، وهي قواعد غير مكتوبة ولكنها تنسم بالطابع العملي، أهمها : التدريب البارع والتفكير والأداء الجيد، ودعم قدرة الأفراد على اتخاذ خطوات

مؤثرة، والأخذ بمنهج إعادة الاكتشاف، والتفكير والتفويض يندمجان معا في جميع المستويات، وخلق حوار، دمج وجهات النظر المختلفة ونماذج عقلية مشتركة، وتقوية الالتزام الداخلي (الضمير)، والتفكير المنظم، واتخاذ قرارات وخلق مواقف للتحكم في الأحداث المحلية.

على هذا النحو لا يمكن إغفال هذه النقاط الرئيسية، وغيرها الكثير عند تشكيل هوية الذات والجماعة في مجتمع المعرفة والتقنية، والذي أصبح الدور الرئيس فيه لمن يمتلك المعرفة والتقنية والقدرة على إنتاجها واستخدامها بشكل يخدم المجتمع والفرد على السواء (فاطمة الزهراء سالم. مرجع سبق ذكره. ص 64). وهنا لابد من الإشارة إلى الاختلاف بين علماء النفس بشأن الصلة بين هوية الفرد وهوية الجماعة، إذ يعتقد "إريكسون" أن "فرويد" قد أهمل في إطار نظريته حول الأنا أهمية العوامل الاجتماعية، لأنه إذا كان للهوية وجه سيكولوجي داخلي، فإنه لمن المؤكد بأن هناك وجها آخر اجتماعي خارجي بالضرورة، ومن هنا فمن المؤكد وفي كافة مستويات الحياة، أن كلا من الهويتين، الفردية والاجتماعية، وينمو في إطار وحدة متكاملة وتساوق منظم. وحسب سيد البحراني فإن هذا الفهم المناقض لفهم فرويد، قاصر هو الآخر لأنه في النهاية يفصل بين هوية الفرد وهوية الجماعة، وإن كان يلج على ضرورة تكاملهما وتساوقهما، ولاشك أن هوية الفرد لابد في النهاية أن تكون متميزة في إطار الجماعة، وإلا فقدت كونها هوية خاصة، غير أن تشكيل الهوية الفردية، بتمييزها ليس سوى عملية اجتماعية تقوم فيها الجماعة بالدور الرئيسي، دون إنكار بالطبع للعوامل الشخصية المتعلقة بالجوانب الإبداعية الخارقة، وإن كانت هذه نفسها، يمكن للجماعة أن تساهم ف تتميتها أو القضاء عليها أو تحويلها إلى طاقة هدم وتدمير (سيد البحراني. 1984. ص 432).

2. 3. 5 - تشكيل الذاتية الثقافية: حين تتشكل الأنا، ويتكون الضمير الداخلي، وتعي الذات مهامها، وتتححر الهوية في مجال ما من المجالات، حينئذ تتراكم الخبرات لدى الفرد، ويدرك السياق المجتمعي الذي يعيش فيه، والسياق العالمي الذي يدور من حوله وتتكون لديه رؤية عن العالم والوجود والطبيعة، ومن ثم تتشكل الذات الثقافية من جملة هذه الخبرات والعادات التي يكتسبها المرء.

ويدرك المرء ماهية الثقافة وأبعادها، بعد أن يكون مفهوما عن الأنا، ويتحاور مع أناه العارفة حوارا موضوعيا، يدرك فيه بنيته الاجتماعية التي يجب أن تتشكل وتمتد مع البنية الذاتية للمرء، ومن ثم مع توافق الأضداد الذات والجماعة، تتشكل الهوية الثقافية للكائن الإنساني في سياق اجتماعي متعارف عليه. وليس هناك تعارض بين الموضوعية والذاتية، والتعارض ينشأ من خلال ما يسمى بمقياس الصدق أو مصداقية المشاهدة والقياس، فالموضوعية هي قرينة الصدق، أما الذاتية فدرجة المصداقية تعتمد فيها على الأدعاءات التي تقوم بها الذات، وهي ما نسميه بالسلوك الظاهري وليس الداخلي.

بهذا المعنى أمكن لعلماء النفس دراسة الذات الإنسانية دراسة موضوعية بمناهج بحثية جديدة وبطريقة عملية، وتلاشت النظرة التي ترى أن دراسة الشخصية الإنسانية أمر صعب على العلماء، وهو يسير على الفنانين، لذلك بدأت دراسات جادة وجديرة بالاهتمام من قبل علماء النفس المعاصرين على الذاتية والهوية الإنسانية بطريقة موضوعية.

2 . 4 - المدخل الأنثروبولوجي: يشير مفهوم الهوية في الأصل إلى الهوية الفردية، ويعني إدراك الفرد نفسياً لذاته، ولكن هذا المفهوم أخذ يتسع تدريجياً داخل العلوم الاجتماعية، بحيث أصبح يستخدم للتعبير عن الهوية الاجتماعية، والهوية الثقافية، والهوية العرقية (السلالية أو الإثنية)، وهي مصطلحات تشير إلى توحيد الذات مع وضع اجتماعي معين، أو مع تراث ثقافي معين، أو مع جماعة سلالية، ويمكن الحديث أيضاً عن هوية الجماعة، بمعنى التوحد أو الإدراك الذاتي المشترك بين جماعة من الناس.

بيد أن استخدام مفهوم الهوية لم يكن محل اتفاق بين الباحثين المعاصرين، والسبب في يكمن في ما تختص به الهوية في الثبات والاستمرار، سواء عندما يتعلق الأمر بهوية الفرد أو هوية الجماعة، ولذلك فإن الباحثين ذوي الرؤية العلمية والتوجهات التقدمية يرون أن الأصوب في هذه المسألة والأبعد عن الشطط هو محاولة اكتشاف آليات تكوين الهوية، أو آليات هذا التوحد مع وضع اجتماعي أو تراث ثقافي أو جماعة معينة، وليس البحث عن هوية ثابتة. إن الدارسين والساسة في كثير من بلاد العالم، وبصفة خاصة في عالمنا العربي، لا يعرفون من الهوية إلا ثباتها، ولا يخاطبون فيها إلا هوية واحدة أزلية لا تتغير، والشطط في هذه الرؤية يرتد بنا إلى نوع من النزعة اللاتاريخية (التي عفا عنها الزمن)، والتي تنتقي من حقائق التاريخ شذرات وتفاصيل تجمعها جنباً إلى جنب، وتكون منها صورة تخالف في كثير من تفاصيلها، قوانين العلم وقواعد المنطق، والأهم من ذلك أنها تخالف أصول وحقائق الاجتماع الإنساني، فتلك العناصر الأقدم لم تثبت في ذواتنا على حالها، وإنما تلتها مراحل تاريخية لاحقة - وكل مرحلة لها من الميزات ما يجعلها تختلف عن سابقتها ولاحقاتها.

المهم أن شيئاً لم يبق على حاله، وأن هذا التفاعل بين المراحل التاريخية من ناحية، وبين القوى الاجتماعية أو الشرائح البشرية الحاملة لها في كل مرحلة ينتج هوية متغيرة متجددة، نسيء إليها لو ثبتناها، ونعتدي على قواعد المنطق وقوانين الاجتماع الإنساني لو حاولنا أن نبعث بعض مكوناتها، هكذا بحالتها بعد هذا الكمون الطويل، لكي نرد إليها الحياة في عالمنا المعاصر.

خلاصة:

يتجاذب مفهوم الهوية ميادين معرفية متعددة، بينما يخضع في كثير من الأحيان لآراء الناس وتصوراتهم حوله، حيث :

- يضع الكثير من الناس مفهوم الهوية في معارضة أساسية مع قيم وأفكار الحداثة، فيجعلونها المرادف للولاءات العشائرية والقبلية والطائفية، بل ويرفضون التغيير، وينشدون النقاء، برفضهم الخارج باعتباره شرا وغزوا، فيقومون بذلك بإلغاء الآخر، عن طريق رفض الاختلاف والتنوع، ويصرون على ذات تاريخية تمت صناعة الهوية في ضوء معطياتها، بكل ما يحيط بتلك اللحظة التاريخية، وبذلك تصبح هذه الهوية فرضية أساسها عقد النقص التي تعتري أصحابها وتدفعهم إلى إضفاء القداسة على بعض جوانبها.

- إن التفكير في الهوية نادرا ما يرتقي إلى مستوى البحث العلمي الجاد، فكثيرا ما جاء الحديث عن الهوية كرد للفعل، خاصة في ظل المناخ المشوب بالتراجع الحضاري، حيث يتشكل عالم تحت أعيننا دون أن يكون لنا القدرة على المشاركة في هذه الصياغة التي لا تحتل إلا ثرواتها دون أشخاصنا أو هوياتنا.

- إن التفكير في الهوية يجرنا قسرا إلى الحديث عن المشكلات العرقية، وفي المآسي الإنسانية التي حدثت باسم الهوية، كما حدث لمسلمي البوسنة والهرسك والروهينغا، والإبادة الجماعية للهنود الحمر، ...حيث تحولت هذه المآسي إلى واقع يومي أليم تكيف معه مستقبلي نشرات الأخبار في العالم.

- الحديث عن الهوية في الجزائر كثيرا ما يؤدي بالتصور إلى انزلاق المجتمع الجزائري في مغبة الفرقة والاختلاف فيما إذا تمت مساواة الأمازيغية بالعربية، أو بانزلاق البلاد نحو الهاوية في حالة ما إذا تم تطبيق الشريعة الإسلامية في كل مناحي الحياة الاجتماعية.

- بات بديهيا لدى مختلف التخصصات الأكاديمية أن مفهوم الهوية هو الأكثر تعرضا للعصف من قبل العولمة، نظرا لما يبدو عليه المشهد الجدلي بين المفهومين، حيث ما فتئت العولمة برياحها العاتية تقتلع وتعدل وتعيد تنظيم الساحة الكونية، وتصوغ أطرا بشكل يؤصل لها، ويسهل لمختلف مؤسساتها ونظمها أن تبسط نفوذها في مساحاتنا التي باتت تنقلص يوما بعد الآخر، الأمر الذي آل بنا إلى تبديل مذاقنا، وتنميط رغباتنا وحتى طموحاتنا وأحلامنا.

ولأن الهوية عنصر مشترك وجامع بين مختلف جوانب التركيبة البشرية (النفسية والاجتماعية واللغوية و...) فإن البحث عنها في ثنايا المعرفة هو السبيل المؤدي إلى الوقوف على حقيقتها للفرد والمجتمع المحلي على السواء، ولتحقيق ذلك نطل من زاوية المدخل الفلسفي كونه مبدع مفهوم الهوية، والمدخل النفسي المعبر عن كنه الهوية والجامع لمركباتها الأساسية التي تميز الشخصية البشرية، بينما المدخل السوسيولوجي يمثل المجال التي تتجلى وتتجسد فيه الهوية من خلال الارتباط التلازمي بين "الأناتة" و"الآخر" أو "النحن" و"الغير".

قائمة المراجع :

- عبد الرحمن بدوي. (1984). موسوعة الفلسفة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ج2. بيروت . لبنان. ص ص 569. 570 .
- جميل صليبا. (د.ت). المعجم الفلسفي.
- فاطمة الزهراء سالم. (2008). نحو هوية ثقافية عربية إسلامية. دار العالم العربي. القاهرة .
- محمد مسلم. (2009). الهوية في مواجهة الاندماج عند الجيل المغاربي الثاني بفرنسا. دار قرطبة للنشر والتوزيع. الجزائر.
- محمد فاضل رضوان . نحن والعولمة مأزق مفهوم ومحنة هوية . 2008/04/02 .
<http://www.educdz.com/montada/>
- مجموعة باحثين . العولمة والهوية الثقافي. إشراف: جابر عصفور. سلسلة أبحاث المؤتمرات. (7). المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة.
- رالف لينتون. (1964). دراسة الإنسان . ترجمة: عبد المالك الناشف. المكتبة العصرية. بيروت.
- عيسى الشماس. (2004). مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا). دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق.
- عبد الهادي الجوهري. (1998). قاموس علم الاجتماع . المكتب الجامعي الحديث. ط3. الأزاريطة الإسكندرية.
- بيتر كونسن. (2010). البحث عن الهوية "الهوية وتشتتها في حياة ايريك ايريكسون وأعماله". ترجمة: سامر جميل رضوان. دار الكتاب الجامعي. العين. الإمارات العربية المتحدة.
- سيد البحراني. (د.ت). العولمة والهوية الثقافية. إشراف: جابر عصفور. سلسلة أبحاث المؤتمرات. (7). المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة.